أيقال كريات بيضاء

لعبد ظاهر نصر الله

نظر النطاسي اللامع امين باشا المعلوف في الجزء الاول من مدخل فن الجراثيم للطبيب احمد حمدي افندي الخياط فجاد عليه بكلمة نشرها مقتطف مارس سنة ١٩٣٥ جاء فيها ما يأتي :

« قال الكريات البيضاء والكريات الحمراء والصواب بيض وحمر ولا يجوز غيرها » (كذا) واظن انها غيرها فسقطت الميم في الطبع

وهذا الاعتراض شافهني به العلامة الأب انستاس ماري الكرملي سنة ١٩٣٢ في مدينة بيروت فردَّ قولي الهضاب الملساء وقال المُلْس

ورأيت هذا القول نفسه لشيخ العروبة احمد زكي باشا اذ كنتُ في القاهرة سنة ١٩٢٠ قال نسيباً لي هنالك عرض مقالاً له لدى ذلك العلامة جاء فيه الليالي السوداء فابدلها بالسود

وهذه قضية لا يصحُّ ان تظل تحت خفاء فها انا ذا اوضح ما عندي فيها

التاء والالف في الدلالة سواء فكما تقول التاء للجمع تقول الالف للجمع ايضاً وهذه أدلتي

١ — « كليم عوراء وعوران » جمع افعل وفعلاء على فُعْل وفعْلان معلوم تقول اسود وسوداء على سود وسودان والنظير كثير

وكلم مختلف فيها فالمعاجم تجمع كلة على كلم فهي صيغة جمع عندها . واما المحقق الاطوي فيورد في شرحه امتحان الاذكياء للعلامة البركوي ص ٣٤ من نسخة الاستانة سنة ١٢٧١ ما يأتي :

«الكلم اسم جنس . اشارة الى انهُ ليس بجمع ولا اسم جمع . مع ان عدم وقوعه الاَّ على الثلث (الثلاث) فصاعداً كونهُ احدها . ووجهُ اولها عدم ثبوت فعِل بكسر العين في صيغ الجمع وارجاع ضمير المفرد اليهِ (كالكلم المحكم) وجعله مصدَّراً ومنسوباً بلا ردهِ الى واحده . ولو كان جمعاً لم يجز واحد مما ذكر . ووجه الثاني مجيء واحده بالتاء وهو لم يوجد في اسم جمع » اهـ

فاللغويون قالوا كلم جمع كلة والاطوي يقول كلم اسم جنس الواحد منهُ كلة . ولا ريب في ان اسم الجنس يشارك الجمع على انهُ يدل على اكثر من اثنين . ولهذا عد اللغويون اسم الجنس من الجموع

وقد جاء كلمٌ عوراء . قالت امية بنت ضرار (حماسة البحتري فصل ١٧٤)

ما بات من ليلة مذ شدَّ مئزره ... قبيمةُ ابنَ ضرارٍ وهو مرتورُ

لا تعرف الكلم العوراء مجلسهُ ... ولا يذوق طعاماً وهو مستورُ

وكلم عوران . قال كعب ابن سعد الغنوي (حماسة البحتري فصل ١٠٨)

وعوراء قد قيلت فلم استمع لها وما الكلم العوران لي بقبول

فالجمع او اسم الجنس بأني نعته على صيغة فعلاء

٢ — الحمر الخشباء — جاء في مادة قرن في معجم البلدان « القرن . . . موضع ذكره ذو الرمة قال:

يردن خشباء القرن وقد بدا لهن الى ارض الستار زيالها

اي ركبن الحمر الخشباء وهي القطعة من الارض كانها جبل » اه . فحمر هنا جمع حمراء وقد نعتها بخشباء وقت الجمع جمع . فخشباء من صيغ الجمع

٣ — الشيعة الشنعاء [1] جاء في ذروة من معجم البلدان قول الصليحي

وطالعت ذروة منهن عادية والصاعت الشيعة الشنعاء شُرّادا

والشيعة وجها تخريج . اولها : شيعة جمع شائع بمعنى ناصر او موافق . مثل صحبة جمع صاحب ورُوقة جمع رائق . والاصل شُيّعة فجيء بكسرة بدل الضمة لسلامة الياء كما جرى ذلك في شيب جمع أشيب والاصل شُيُب . وقد جاء الصحاح بشعاة جمعاً لفاعل وشاهده قول امرئ القيس

علون بانطاكيةٍ فوق عقمة كجرمة نخلٍ او كجنة يثربِ

فان هذا القول ردّه بعضهم ونقل ردهم صاحب البستان فقال «جاء الصحاح بهذا البيت شاهداً على الجرمة بمعنى القوم والصحيح ان الجرمة هنا ما جُرم وصُرم من البسر » فذهبتُ الى صيغة جمع لا وجه لردّها

وثانيها . شيعة جمع شاع بمعنى نمير مثل جيرة جمع جار وقيعة جمع قاع وفتية جمع فتى وإخوة جمع اخ (أخو) وولدة جمع ولد اي أن فعلة صيغة جمع لفَعَل والشواهد على جمع فعلة على فعل كثيرة

فشيعة صيغة جمع لا شك فيها وقد جاء نعتها على فَعْلاء وقُعْتُ الجمع جمع فشعاء صيغة جمع لا صيغة مفرد . ومن هذا الباب قول طاهر ابن ابي هالة من قواد ابي بكر الصديق (أخبار في معجم البلدان)

فلم تَرَ عيني مثل جمع رأيته بجمع عجاز في جموع الاخابثِ

فتلتاعُ ما بين قُسّة خاسرٍ الى القيعة البيضاء ذات النبائثِ

فقيعة جمع قاع كما تقدم التنظير . ولكن المعترض له ان يعترض هكذا : قيعة مفرد ودليل ذلك قول معيار اللغة « القاع أرض مهلة مطمئنة مستوية .. والقيعة كصيغة بمعناه كالقيع بلا هاء ومنهم من جعل الاولى (أي قيعة) جمعاً ومنهم من جعل الاخيرة جمعاً » وقول محيط المحيط « وقيل قيعة مفردة بمعنى القاع . ويستدل على صحة قيعة مفرداً نعتها بذات فذات من نعوت الافراد لا الجموع

(١) هذه كلمة تقلتها كما جاءت لما انا فمن يجلون شأن الشيعة (امين)

قلت لو صحّ عند اللغويين ان قيمة مفرد كخيفة وصيرة لاقتضى ان يذكروا صيغ جمعها كما ذكروا لخيفة خيفاً وأخيافاً وهذه في الحقيقة جمع اي جيف على أجياف كعنب على أعناب. وذكروا لصيرة صيراً وصيَراً فاهي صيغ الجموع التي ذكروها لقيمة وهي وزان قِدَة وقد جمعوا قِدَة على قِدَد وأقِدَة فان هذا الاهمال اما عن عدم اطمئنان الى ان قيمة مفرد واما عن عدم استيفاء البحث. فعلى الرأي الاول تكون قيمة عند اللغويين صيغة جمع لا صيغة مشتركة بين الجمع والمفرد وعلى الثاني يكون الاهمال دليل نزارة المادة اللغوية عند اصحاب المعاجم او حيرتهم في هذه الصيغة

أما ذات فمن نعوت المفرد والجمع ودليل ذلك ان معجم البلدان قال «أميل جبل من رمل جمعهُ أُمُل (مثل قَليب وقُلُب) قال الراعي

مهاريس لاقت بالوحيد سحابة ال أُمُل الغرّان ذات السلاسل

فنعت أملاً بذات . وجاء في شعر ذي الرمة (طبع بيروت)

وبين الحبال العفر ذات السلاسل . والحبال جمع حبل اي الرمال المستطيلة فنعتها بذات . وجاءت ذات نعتاً لحمام . قال الشماخ (الساري في معجم البلدان)

حنّت الى سكة الساري فجاء بها حمامة من حمام ذات أطواق

فجعل ذات نعتاً لحمامة من القطع بين الموسوف والصفة وهو معيب عند البلغاء وجعلها لحمام من الفصيح . وحمام كسحاب فمن قال سحابة ج سحاب قال حمامة جمعها حمام ومن قال سحاب اسم جنس والمفرد سحابة قال الحمام اسم جنس والافراد بالتاء ومن هذه الطائفة نعامة ونعام والخلاصة أن ذاتاً نعت لاسم الجنس او للجمع واسم الجنس في معناه جمع . فمن قبل قيمة في قول طاهر الآنف الذكر صيغة جمع بجد بيضاء نعتاً لجمع ونعت الجمع جمع

٤ — كتيبة شهباء وفارسية خضراء وسمهرية سمراء . مجيء الجمع بالتاء وارد كثيراً على صيغ متعددة فنسوة جمع نسوٍ ومارّة جمع مارٍّ وعسّالة جمع عسّال ومسلمة جمع مسلم ومقاتلة جمع مقاتل وهندية جمع هندي وكتيبة جمع كتيب . وفارسية جمع فارسي وسمهرية جمع سمهري . وقد نعت باعث ابن صريم اليشكري (من شعراء حماسة حبيب) كتيبة هكذا

وكتيبةٍ سفع الوجوه براسل كالأُسد حين تذبُّ عن أشبالها

وما ينعت بجمع فهو جمع .وقد جاء في صفة كتيبة فعلاء كشهباء وخضراء قال حسان (السيرة لابن ابي اسحاق) بكتيبة خضراء من بلغزوج

وجاء في شعر ابن حلزة اليشكري

ثم حجراً اعني ابن ام قطام ولهُ فارسيـــة خضراء

وجاء في شعر المتنبي

وبساتينك الجياد وما تحـ ـملُ من سمهريةٍ سمراء

والسمهرية والعسّالة مثلان في مجيء التاء جمعاً لمفردها وقد نعت المتنبي عسالة بذبل قال

معطي الكواعب والجرّد السلاهب والـ ـبيض القواضب والعسّالة الذبل

اذن لا فرق بين سمراء وذبل ومن يذهب الى وجود فرق بينهما عليه أن يجيء بدليله فسمراء صيغة جمع لان الجمع ينعت بجمع ولا ينعت بمفرد . ومن هذا الباب مركوزة جمع مركوز ومقربة جمع مقرّب قال المتنبي

وأردية خُضْرٌ ومُلك مُطاعةٌ ومركوزةٌ سُمْرٌ ومُقْرَبة جُرْدُ

٥ — اسم الجمع ينعت بفعلاء. اسم الجمع كما عرفه الاطوي له مناد الجمع وليس له مفرد من بنائه ولا يفرد واحده بالتاء او بياء النسبة كفَيلق . فقد جاء فيلق شهباء وفي السيرة لابن اسحاق للعباس ابن مرداس السلمي قوله

حتى سبحنا أهل مكة فيلق شهباء يقدمها الهمام الاشوسُ

وفي السيرة ايضاً شاهد آخر هو

رُميتَ نطاةُ من الرسول بفيلق شهباء ذات مناكب وفقار

واسم الجمع متضمن معنى الجمعية اذن صيغ الجموع وصيغ اسماء الجموع وصيغ اسماء الاجناس يجيء في نعتها بناء فعلاء

٦ — فعلاء صيغة جمع — اما مجيء فعلاء صيغة جمع فوارد كثيراً . ففي ترجمة الاحنف التميمي التي نشرتها المكتبة العربية في دمشق ان زياد ابن ابيه قال له : « هذه الحمراء قد كثرت بين اظهر المسلمين وكثر عددهم (كذا) وخفت عدوتهم . والمسلمون في ثغرهم وقد خلفوهم في نسائهم وحريمهم . وحمراء جمع احمر كأحمرين جمع احمر

وجاء في مادة شجر في محيط المحيط « قال سيبويه الشجراء واحد وجمع وكذلك القصباء والطرفاء والحلفاء » ومن هذه الطائفة البرشاء والعوفاء والعثراء والدهماء وذهب اقرب الموارد الى ان برشاء جمع ابرش وبرشاء

ومجيء الواحد والجمع على بناء واحد وارد في فُعُل كفُلُك وفُعْل كفُلْك وفِعال كدِلاص وفعيل كقطين وفاعل كالحاجّ والداجّ ووالد قال جرير (ديوانه جزء ١ : ١٣٢ طبع مصر)

اعباك والدك الادنون فالتمسْ هل في شفاعة ذي الاهدام مفتخر

فكما شارك بناء فعلاء بناء افعل في المجيء على فعل وفعلان شارك بناء أفعل بناء فعلاء في المجيء على فعلاء

٧ — عرب عاربة وعرب عرباء اي عربٌ عُرَحاء خلّص — هذا نص وارد في كتب اللغة فاذا يقال في عرب أأسم جنس او جمع

جاء في الصحاح « النسبة الى اعراب أعرابي لانهُ لا واحد له . وليس الاعراب جمعاً لعرب كما كان الانباط جمعاً لنبط . وانما العرب اسم جنس »

فهذا قول صريح بأن عرباً اسم جنس . واردُّه هكذا : قد جعل الصحاح عرباً من طائفة مستقلة عن طائفة نبط وحبش وعجم . والتفرقة بين طائفتين لا بد لها من فارق فأين الفارق ؟ فقد جاء نبطي وحبشي وعجمي للواحد كما جاء عربي للواحد. وحبش وأحباش وحُبُش وحُبْشان كعرب وأعراب وعُربان وعُرُب وعُرْب . ووجه الخلاف ان اعراباً ليست جمعاً لعرب كما ذكر الصحاح وأحباش جمع حبش . قلت أعراب أصالة جمع عرب ثم نقل الى فئة من العرب هم البدو وواحدهم بدوي . فالشيء يكون عاماً ثم يتخصص فكل تمر يجتنى قطيف تمراً كان او مشمشاً او خوخاً او تفاحاً وجمع قطيف قطائف كصعير وصغائر . والاستعمال خصص قطائف بنوع من التمر. والمنجور كل ما نجر صندوقاً كان او خزانة او باباً او شباكاً وقد خصص منجور بالحالة . والدقيق كل مدقوق بزر صمتر كان او بزر كتان او قمحاً او شعيراً وقد أطلق الدقيق على القمح خاصة فاذا اريد سواه قيل دقيق صمتر او دقيق شعير والنظائر كثيرة . ومن هذا الباب استعمال اعراب للبدو فالتفرقة بين اعراب وانباط واعجام وأحباش من عمل الاستعمال لا من عمل اللغة . والاعرابي كالانصاري والحرمي والبدوي فالبدو جمع باد كالصحب جمع صاحب

***

أما الذهاب الى ان عرباً جمع قلو الذي رحمه الله وقد أورد في لسمه النواجم في اللغة والمعاجم مقدمة معجم الطالب لتأييد مذهبه ما يأتي

أولاً — لا يقال عرب على الواحد ولا على الاثنين وانما يقال على الثلاثة فما فوق تقول هذا الرجل من العرب وهذان الرجلان من العرب وهؤلاء عرب . (ويصح ان تقول هو عربي وهما عربيان وهم عرب كما تقول هو حبشي وهما حبشيان وهم حبش وهو حرمي وهما حرميان وهم حرس) وذلك من خصائص الجمع واسم الجمع ولكن اسم الجمع لا يكون له مفرد من لفظه يجمع عليه جمعاً قياسيًّا وعرب له مفرد من لفظه يجمع عليه جمعاً قياسيًّا فهو جمع (مثل حرس وحارس)

ثانياً — وجوب كون الضمير الراجع اليه ضمير الجمع او ضمير الجماعة نحو العرب يقولون والعرب تقول وما هو اسم جنس يعود اليه ضمير الجمع فيقول القنا الخطية والقنا السُّلُب قال الأخطل (ديوانه طبع بيروت)

ومن ربط الجماش فان فينا قنًا سُلْباً وافراساً حسانا

وقال أبو الاخيل العجلي (حماسة حبيب)

كفى حزناً ان لا أزال أرى القنا تمجُّ نجيعاً من ذراعي ومن عضدي

وضمير المفرد ايضاً قال الاخطل (ديوانه) «اذا ما القنا اخطي عُلِّتْ مخاضبهُ» وقال المتنبي

بناها فأعلى والقنا يقرع القنا ومرج المنايا حولها متلاطمُ

لذلك تكون صيغة عرب ليست اسم جنس كما ذهب اليه الجوهري ولا اسم جمع لانهُ يقال فيلق شهباء وفيلق لجب

ثالثاً — اتفاق اللغويين والنحاة على انهُ مؤنث وليس فيهِ علامة تأنيث ولا هو مما يطلق على مفرد مؤنث وهذه خاصة جمع التكسير كارجال قامت وقعدت

رابعاً — تصغيره على عريب بدون تاء والمفرد المؤنث المعنوي اذا صغّر تلحقهُ التاء كشمس وشميسة وارض وأريضة . وجمع التكسير الذي لا تاء فيه اذا صغر لا تلحقهُ التاء كسحاب . ولما خفيت هذه الحقيقة وحسبوه مفرداً مؤنثاً قالوا ان تصغيره بدون تاء شذوذ . (وما الشذوذ الاّ ثمرة تقليم له من طائفته الى طائفة اخرى . ولو انزلوه في طائفته لوجدوا قياسهُ صحيحاً فالشذوذ من عملهم لا من بناء صيغته) وازيد على ذلك ان عرباً جمع لعارب أو عريب فلعارب مخدم لخادم ولعريب مخدم لخديم . وعُرُب وعُرْب لعارب كجاهل وجهل وجهْل ولعريب كقليب وقُلُب وقُلْب . وعُرْبان وعِربان لعارب مثل حوران لحائر وحيطان لحائط ولعريب مثل فُصلان وفِصلان لفصيل واعراب لعارب كاشهاد لشاهد ولعريب كاشراف لشريف . اما عاربة فلعارب خاصة مثل سابلة وعارة وقافلة وجالية فهي لسابل ومار وقاطن وجالٍ وبهذا يعرف ان عاربا اولى من عريب بعرب

***

فما ان عرباً جمع وجاء تعته بعرباء فصيغ الجمع يأتي نعتها بفعلاء . وبما أن حرباء وصرحاء وخلص معنى واحد ولا خلاف في جمعية صرحاء وخلص فلا وجه للشك بأن عرباء صيغة جمع والا كان بين صُرَحاء وعرباء فارق فما هو وما الدليل عليهِ . اذن يقال أدلة غراء كما قال والدي في تسميته أحد كتبه الادلة الغراء وعصاب ملساء كما جاء في كلامي وشمائل حسناء كما اورد شاعر الاقطار العربية خليل بك المطران في رثاء الامير كمال الدين بن السلطان حسين كامل رحمهُ الله . وكريات بيضاء كما جاء في كلام احمد حمدي افندي الخياط

ولكل من الاب انستاس ماري الكرملي الجليل والنظامي امين باشا المعلوف ومن يذهب مذهبهما ان يزيف ادلتي واشترط في الرد ما يأتي

١ — ان يكون نقيّاً من المطاعن فينظر الى القول لا الى القائل

٢ — ان يعيّن موضع الشاهد فلا يكتفي بانهُ قال المازني او الفارسي او الشاعر لأتمكن من العثور على موضع الشاهد

٣ — ان يرسل نسخة من رده اليّ لا تصفح ما جاء به . فانهُ لا يعلم الغيب الاّ الله ولا شك في أن الحقيقة بلت البحث

دمشق : البطريركية الارثوذكسية